الحبّ النّبويّ في قصائد المديح لسيدي لخضر بن خلوف.

د. نجاة بوزيد
جامعة مستغانم.

- **تقديم:**

المديح النّبويّ ضرب شعريّ، ظهر في عصر صدر الإسلام، وفيه يشيد الشّاعر بأخلاق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ومناقبه، وقد اهتّم الشّعراء المدّاحون بعرض القيم الدّينيّة الّتي تأثّروا بها بعد دخول الإسلام، فاختصّت عندهم المعاني بفضائل النّفس البشريّة، ودعوا إلى التّوحيد ونشر الدّين. ويعدّ حسّان بن ثابت شاعر الرّسول الكريم أوّل من نهج منهج المديح النّبويّ. وتعتبر أواخر القرن السّابع وأوائل القرن الثّامن الهجريّ الفترة الّتي ازدهر فيها هذا الفنّ، بعدما انتشر التّصوّف، وظهر شعراء متصوّفة أنشدوا قصائد وموشّحات وأزجال، كثير منها يشيد بالدّين وبالرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام. ويعدّ البويصريّ رائد المدّاحين في عصره والعصور اللاّحقة، حيث كانت بردته نموذجا مكتّملا لأصول المديح النّبويّ والّتي يقول فيها:

وكيف تدعو إلى الدّنيا ضرورته من لولاه لم تخرج الدّنيا من العدم
محمد سيّد الكــونــيــن والثّقلــين والفريقين من عرب ومن عجم
نــبــيّــنا الآمر النّـــاهي فلا أحد أبرُ في قــول لا منه ولا بغم[1]

وقد حذا الشّعراء حذوه في مدح الرّسول الكريم، وتنوّعت قصائد المديح فشملت الفصيح والملحون، وأعطى هذا الشّعرُ بنوعيه صورة واضحة للأبعاد الّتي كان ينقلها الشّاعر عموما لخطابه الدّينيّ، مع وجود تفاوت في الرّؤية عند الفصيح والشّعبيّ، حيث ينطلق الأوّل من الفهم الصّحيح والسّليم للدّين وفهم الرّسالة المحمديّة، في حين يهتمّ الشّاعر الشّعبيّ بالجانب الرّوحيّ، ويركّز على نور النّبوة بروح صوفيّة واضحة، إلى جانب العناية بالنّاحية البطوليّة في مواقف الرّسول وصحابته[2].

ولعلّ حديثنا عن المديح النّبويّ الملحون في الجزائر؛ يجعلنا نحدّد حقل الرّؤية لهذا اللّون الشّعريّ، لما لهذا الشّعر من منافذ بحثيّة متشعّبة، ولتسليط الضّوء على الشّاعر الشّعبيّ الجزائريّ القديم الّذي أعطى لهذا اللّون العناية بفضل وجود عوامل جعلته ينتشر بقوّة انتشار التّصوّف، وبخاصّة في العهد العثمانيّ الّذي عرف مسارا صوفيّا مختلفا عمّا كان من قبل؛ وحتّى عمّا كان بعد هذا العصر. لقد كان لوجود التّصوّف في الجزائر أثره في التّوجيه الرّوحيّ للأهالي، ففي هذه الفترة كان للمشايخ الصّوفيّة تأثيرا عجيبا في الذّهنيّة الشّعبيّة، وأوجد هذا الانبهار رموزا روحيّة للجزائريين؛ تمثّلت في شيوخ المتصوّفة أمثال محمد الهواريّ بوهران، وسيدي راشد بقسنطينة، وسيدي أبو مدين الغوثيّ بتلمسان وغيرهم[3].

شجّع العثمانيّون رجال التّصوّف وأهل الطّرق الصّوفيّة لامتلاك هذه السّلطة الرّوحيّة؛ وهم كذلك من ساعد على بناء الأضرحة والمزارات[4]، كما ساعدوا في بناء الزّوايا وأنفقوا في ذلك الكثير من الأموال.

وفي ظلّ هذا الانتشار السّريع للتّصوّف بين الخاصّة والعامّة، أخذ التّصوّف يحيد عن مساره الحقيقيّ، ويتلبّس المعتقدات الشّعبيّة المحليّة، وترك المجال للخرافة والشّعوذة وانتشار الطّرقيّة. يقول عبد الله ركيبيّ في هذا الأمر:" والواقع أنّ عهد الأتراك هو العصر الّذي عمّ فيه الجهل، وطغت روح الجمود في الفكر والأدب وانتشرت الخرافات والأوهام....."[5] وكان لهذا المناخ الفكريّ والأدبيّ دوره في توجيه الشّعراء إلى النّظم في الشّعر الدّينيّ الّذي كان سبيل النّجاة والفوز في الدّار الآخرة ونيل رضا اللهّ؛ بعيدا عن ملهيات الحياة الدّنيا. ويرى عبد الله الرّكيبيّ أنّ هذا الشّعر قد انتشر بعد "انتشار الخطر من الخارج وأصبح الدّين ملاذا للنّاس، يحتمون به ويعيشون في ظلّه هروبا من المظالم... وبعدما أخذت الدّول الغربيّة كإسبانيا تشنّ حملات على سواحل الجزائر."[6]

والواقع أنّ المديح النّبويّ في هذه الفترة؛ قد أخذ موضوعاته من المنبع الّذي أخذ منه المديح الفصيح، لكنّ التّفاوت يظهر في حجم وطبيعة وعي الشّاعر الشّعبيّ للمهمّة المنوطة به في هذا المجال من جهة، وطبيعة الخلفيّة المعرفيّة الّتي ينطلق منها في عرض حمولته الفكريّة للآخر من جهة ثانية. ولعلّ الشّاعر الشّعبيّ الصّوفيّ قد تأثّر بالثّقافة الدّينيّة والشّعبيّة الممارسة في محيطه الّذي يعيش فيه، وتعتبر الزّاد المعرفيّ الّذي نهله من المساجد والزّوايا، ولتبدو قصائد الملحون حمولة ثقافيّة تحيل من مضمونها إلى ما يسود من نشاط دينيّ وثقافيّ؛ يمارسه الشّاعر مع أفراد مجتمعه، مع وجود اختلاف في زوايا الرّؤية لهذه الممارسات بين الشّاعر والعامّة الّتي ستشاركه

الممارسة، فالشّاعر الشّعبيّ يؤكّد هذا النّشاط شعرا انطلاقا من مؤهّلاته الاجتماعيّة والثّقافيّة، ويحدّد من خلاله الأبعاد الحضاريّة لهذا الخطاب.

وقد أثبت الشّعر الملحون وجوده وفعاليّته في ذلك العهد؛ نظرا لاستسهال النّظم فيه وقربه من العامّة، واشتهر فيه العديد من الشّعراء الشّعبيين أمثال محمد بن مسايب وابن تريكيّ والزّناقيّ، وقد نظّموا بالخصوص في المسائل الدّينيّة[7]، بالإضافة إلى الشّعراء الفصحاء الّذين نظّموا في هذا اللّون بالعاميّة كسعيد المنداسيّ الّذي عالج المدائح النّبويّة وغيرها من المواضيع الدّينيّة في قصيدة بالملحون تعرف بالعقيقة[8].

ويعتبر الشّاعر لخضر بن خلوف من أشهر الشّعراء الشّعبيّين الّذين نظّموا في فنّ المديح، ومن أقدمهم في المغرب الأوسط، وهذا ما يؤكّده أبو القاسم سعد الله في قوله : "ولعلّ أقدم القصائد الشّعبيّة الموالية للعثمانيين؛ والّتي سجّل صاحبها وهو الأكحل بن خلوف (المشهور بالأخضر) المعركة الّتي دارت بمرسى مستغانم..."[10]

ويبدو أنّ الشّاعر بن خلوف قد برع في فنّ المديح وأكثر منه، حيث ضمّ هذا اللّون إحدى وثلاثين قصيدة في الدّيوان الأوّل الّذي جمعه محمد بن الحاج الغوثيّ بخوشة، وستّ وخمسين قصيدة أخرى حقّقها الحاج محمد حبيب حشلاف، وكما يبدو أنّها غير مطبوعة[11].

ونظّم شاعرنا قصيدة واحدة تختلف عن القصائد الأخرى الّتي نظمت في المدح، وهي قصيدته الشّهيرة "قصّة مزغران" الّتي أبرز فيها وطنيّته المتقدّمة وشجاعته في مواجهة العدّو، والقتال في سبيل الله بصدق وعزيمة، يقول محمد بخوشة في الدّيوان : "وإن حكى القتال صاح من صميم الفؤاد

مشغوفا بسيّد الرّجال ومنتظرا لرحمة الرّؤوف المتعال."[12] وكان مديح بن خلوف ممزوجا بالتّصوّف والحكم، يخلو منه الغزل والرّثاء؛ كما جرت عادة المادحين الأوائل أمثال كعب بن زهير والبوصيريّ وغيرهم.

وقد رأينا من بين القصائد الّتي مدح فيها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، قصائد يفرغ فيها جمّ حبّه لسيّد الخلق؛ بصورة تجعل القارئ يتصوّر مدى استفاضة الشّاعر في تعبيره عن الحبّ الّذي بلغ به حدود المتصوّفة الّذين غرقوا في الحبّ الإلهيّ، وعبّروا عن هذا الحبّ شعرا يفيض رموزا وإيحاءات لم يألفها العامّة ولا الخاصّة في الشّعر العربيّ، وجعلوا من هذا الحبّ سبيلا لتطهير النّفس البشريّة، والوصول إلى معرفة الله، واكتساب الرّضوان والتّواب في الآخرة، وذلك عملا بقوله تعالى: " **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ.**"[13]

والمعرفة لا يحقّقها إلاّ الوجد، بحيث أنّ الحبّ عند المتصوّفة هو جوهر السّلوك، ويبدو أنّ الأخضر بن خلوف قد انتهج طريقهم للتّعبير عن الحبّ النّبويّ، حيث يقول متشوّقا لرؤية قبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

يعذرني في غرامك اللي يكون مسلم شريف عربي دمو منسوب للأعراب
بغيت نسقي وندوق قرقاف بير زمزم طيب عسل الشـــهرة انجرعه أنجاب
ديار مكة واجبيل قبيس فـــيه نرشم طابعي مكـــاوي مرشوم في الكتاب[14]

وقد سار الأخضر بن خلوف على طريق الشّعراء المغاربة الّذين عبّروا عن حبّهم وشوقهم لرؤية الرّسول الكريم، والشّوق لزيارة قبره حيث يقوم أبو عبد الله محمد بن صالح الشّاطبيّ (ت699هـ – 1301م) متشوّقا لرؤية قبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم:

متى يشفي قلبي بلثم قربه ويسمح دهر بالمزار بخيل[15]

تعتبر محبّة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام قوام العبادة، والتّقرّب إلى الله عند شعرائنا، حيث يقول ابن تيميّة :"محبّة الله، بل محبّة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله، وأجلّ قواعده، بل هي أصل كلّ عمل من أعمال الإيمان والدّين."[16]ويعبّر في قصيدة له عن شدّة شوقه لحبيبه، وانتظار اللّحظة الّتي يراه فيها، وكأنّه ينتظر فعلا حصول اللّقاء حقيقة بعد إلحاح وإصرار، يقول فيها:

أعييته نرجى في محبوبي ماجا فيوق بالله نشوف خيالـــــه

زين الدرجة في نهار العجاجة راني في الحشا واقد مشعالة[17]

والظّاهر أنّ لوعة الفراق الّتي تحرق قلب شاعرنا دليل على وعيه الشّديد بعظمة هذا الحبّ ومنزلة من يحبّ ويتوق للّقاء، حيث ورد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حديث رواه مسلم عن أبي هريرة أنّه قال: "من أشدّ أمّتي لي حبّا ناس يكونون بعدي يودّ أحدهم لو رآني بأهله وماله."

ويقول في هذا الشّأن ابن قيّم الجوزيّة: "... ولا يتمّ للمؤمنين مقام الإيمان حتّى يكون الرّسول أحبّ إليهم من أنفسهم فضلا عن أبنائهم وآبائهم..."[18] ومن مظاهر حبّ الرّسول، حبّ أهله. ويشير الأخضر بن خلوف في قصيدته إلى هذه المحبّة الّتي يكنّها إلى آل بيته فيقول:

دخيلك يا فاطمة مع باباها وزوجاه حيظر أعطاه الله الهادي

الحسن والحسين نعم أولادها بنت المصطفي الرسول المحمدي

وقد اجتمع في حبّ الشّعراء المادحين؛ حبّ جماله الظّاهريّ والباطنيّ حيث سلك شاعرنا في التّعبير عن حبّه مسلك العذريين والزّهاد في التّعبير

عن حبّهم ووجدهم بألفاظ تحيل كلّها إلى معاني الحرمان والشّوق والحنين والتّذلل للمحبوب، كقوله:

مصادف كيه ولا علم حدابـــي غيــر الواحــد القديـــم الــباقي
وقدت ناري ولا يظهر دخانهــا كمدت القلـــــب ولا نفع تكمادي
مصادق دقة ولا بان لي مزراقها نيران الحب شــاعلة في أكبادي[20]

ومن مظاهر حبّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم والولوع بــه كــذلك، رؤيّته في المنام، ويندرج عنصر رؤية الرّسول الكــريم اتّصــاله الرّوحــيّ بالرّسول في منامه؛ إذ يقول في قصيدته "لله الحمد":

شفــيــع الخلق بــو رقية البارح في المنام رأيــت العدناني
البــارح في المــنام رأيته وأصحــابــه حــاضــرين جمالا
مــدة لــي مــا أرمــقته أهــلا بالمــصطفـــي وســهــلا
تــقــدم لــشواري بذاته وغســل وجهي بزيــن غــســلا
في المسند تصح كل رؤية داني مني وقــال مولى الفرقاني[21]

ويذكر الشّاعر فضل رؤية الرّسول في المنام، لمن خصّــه الله فضــل رؤيته؛ مستندا إلى حديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم: "من رآني في المنام فقد رآني، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل في صورتي." وهو في هذا الشّأن يقول:

ما يتمثل خــبــيث ليـــا من شاهدني من أمــتي فقد رآني
يتبختر في الجنان لخضر يــمــلك مــن الواردين قبـــا
يستنشق من عبيق عنبر يشرب من حوض الحور وحيا[22]

وما يؤكّد محبّة الأخضر بن خلوف للرّسول صلّى الله عليه وسلّم كثرة توسّلاته وطلب شفاعته، ويقينه بفضل الرّسول على أمّته في شفاعته يوم

القيامة، وهذا مطلب كثر عند الزّهاد والمتصوّفين، وقد اهتمّ به كثير من شعرائهم، وأغلب الظّنّ أنّ التّوسّل كان أساس لحاجة الإنسان للعون والدّعم والحماية؛ لأنّ "البيئة عندما يسودها الظّلم ويُخيِّم عليها الظّلام، ويشعر فيها الفرد بطغيان الإنسان وجبروته، فإنّ الشّاعر يتّجه إلى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم مبتهلا أو داعيا."[22] وقد ظهر هذا النّوع من الشّعر بالمغرب الأوسط في جوّ يسوده الظّلم والقهر من قبل الولاة، إضافة إلى سوء الوضع السّياسيّ والاقتصاديّ الّذي عانى منه المجتمع.

ومن الشّعراء المتصوّفة الّذين ظهروا بهذا النّوع، الشّاعر الصّوفيّ محمد بن الحسين القلعيّ(ت 673هـ – 1275م) الّذي أورد أبياتا طالبا فيها شفاعة الرّسول عليه الصّلاة والسّلام، وهو يقول:

فيا سامع الشكوى أقلني عثرتـــي فانك يا مولاي تعفـــو وترحم

ويا سامعين استوهبو لي دعـــوة عسى عطفة من فضله تتنسم[23]

وقد سار ابن خلوف على منوال الشّعراء المغاربة؛ حيث يتوسّل إلـــى شفيع الأمّة في كثير من قصائده؛ نادما على ما اقترفه من ذنوب، وهو يـــتّهم نفسه بالتّقصير وتضييع الفرائض، فيقول:

لا غيرك شفيع يشفـــــع مـــن هـــو عـــرة بحالي

راغب في الدنيا لوحدي في نفسي شفيت الأعدا

يا قطعان يدي بيـــــدي ما نفلت حتى بـــسجدا

يا محمد أنت سيـــــدي صـــلى اله عليك لبدا[24]

ويرجو حضور الرّسول الكريم لحظة وضعه في القبر، حتّى يكون له شفيعا ومعينا على عظيم الموقف الّذي سيكون فيه، فيقول:

يا محمد أنت الأمجـــد تصرح بك الناس شتا
في قبري باغيك توجد للغبة مـــفـــتاح أنت[26]

كما يطلب الشّفاعة لنفسه ولأهله والمؤمنين كافّة، فيقول:

يا محمـــد لا تـــسلـــم في جسدي وأهلي ونـــاسي
حرر لي ما ضنات آدم قدر شـــعر ذاتـــي وراسي
البادية الأعراب وعجم كلـــتهـــا تاقي وعاصـــي[27]

يحيل شعر المديح النّبويّ الّذي يفيض حبّا وصدقا، ويســـمو بـــالرّوح الصّوفيّة إلى مكانة الشّاعر الشّعبيّ الأخضر بن خلوف، ومنزلته الفنيّة بـــين شعراء عصره، حيث يُظهر هذا الشّعر بأنّه واحد من المبدعين الأفذاذ، الّذين تركوا أثرا شعريّا لا يستهان به في مجال الإبداع الأدبـــيّ والـــدّينيّ، ومـــن الأولياء المحبين الّذين ذكرهم الله في كتابـــه الحكـــيم: "**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَـــاءَ اللهِ لاَ خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ،الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ، لَهُمُ البُشْرَى فِـــي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ.**"[28]

الإحالات:

1- محمد عبد المنعم خفاجيّ، الأدب في التّراث الصّوفيّ، ص: 258.
2- ينظر أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر لأبي القاسم سعد الله.
3- عبد الله ركيبيّ، الشّعر الدّينيّ الجزائريّ الحديث، ص: 384.
4- قسوم عبد الرّزاق، عبد الرّحمن الثّعالبيّ والتّصوّف، ص: 25.
5- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ج1، ص: 84، وص: 85 وما بعدها.
6- عبد الله ركيبيّ، الشّعر الدّينيّ الجزائريّ الحديث، ص: 48.
7- المرجع نفسه، ص: 49.
8- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافيّ، ص: 330.
9- المرجع نفسه، ص: 329.

10- المرجع نفسه، ص: 326.
11-عبد القادر بن عيسى المستغانميّ، مستغانم وأحوازها عبر العصور تاريخيّا وثقافيّا وفنيّا، ص: 40.
12- محمد بخوشة، ديوان الأخضر بن خلوف شاعر الدّين والوطن، ص: 39.
13- سورة آل عمران، الآية: 31.
14- قصيدة يا حبيب الخاطر، ينظر عبد القادر بن دعماش، المهمّ في ديوان الشّعر الملحون، ج1، موفم للنّشر، الجزائر، 2008م، ص: 59.
15- المقريّ، نفح الطّيّب، الجزء الثّاني، ص: 185 وما بعدها.
16- ابن تيميّة، التّحفة العراقيّة في الأعمال القلبيّة، ص: 57.
17- الدّيوان، ص: 49.
18- ابن قيم الجوزيّة، روضة المحسنين ونزهة المشتاقين، ص: 276.
19- الدّيوان، ص: 104.
20- الدّيوان، ص: 105.
21- الدّيوان، ص: 49.
22- الدّيوان، ص: 49.
23- عبد الله ركيبيّ، الشّعر الدّينيّ الحديث، ص: 423.
24- أبو العباس أحمد الغبرينيّ، عنوان الدّراية في من عرف من العلماء من المائة السّابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ص:.97
25- الدّيوان، ص: 49.
26- الدّيوان، ص نفسها.
27-الدّيوان، ص: 44.
28- سورة يونس، الآيات: 62، 63، 64.